الفُتُوَّة
تَطوُّرٌ وَدَلالَة

الدكتور نوري حمودي القيسي
(كلية الآداب - جامعة بغداد)

من المظاهر الدلالية المتميزة في اللغة العربية احتواؤها معاني مختلفة للفظة الواحدة ، تكتسبها من خلال الاستعمال ، وتنفرد بها بعد أن تصبح لفظاً مخصوصاً ، واستعمالاً مُحَدَّداً ، وقد تبتعد بعض الدلالات عن المعنى المعجمي للفظة بسبب ابتعاد القرينة المجازية أو العقلية ، وتنقطع اسباب التواصل التي أوحت بالاستعمال المجازي ويبقى المعنى اللغوي قائماً في تحديد معنى اللفظة ، وتوسيع المدى الذي يمكن أن يتحرك فيه ليؤدي مهمته ، ويحقق للمفردة دورها في الاستعمال والشيوع ، وهو ما يمكن ان يقال بالنسبة لمعظم الالفاظ العربية .

والفتوة من الالفاظ التي اخذت حجمها في المعجم العربي لتدل على الفتي وهو « الشاب » و « الفتاة » : الشابة وعندما يُقال فَتِي بالكسر يعني فتي السن بيّن الفتاء وهنا تنحصر الدلالة في معنى الشباب والفتوة والنشاط والحيوية والشجاعة ، وتأخذ اللفظة في المعجم دلالة أخرى هي السخيّ الكريم . والفتوة : الكرم والحرية واذا حاولنا البحث عنها في الاستعمال اتضح لنا أن المعنى ينصرف الى الشجاعة والوفاء بالوعد ، والبر بالعهد ، والصبر على الشدائد ، ودفع الملمات ، وتحمل الأعباء ومعظم الصفات المحمودة التي يمكن أن يؤديها الفتى ، ويحرص على الالتزام بها ، ويجد في أدائها ضرباً من المروءة ، ولوناً من الوان الفروسية . ولعلّ في بيت امرئ القيس حين توجه الى قيصر اشارة الى هذه المعاني وهو يتحدث عن رحلته وغربته ومسؤوليته . .

عليها فتىً لم تحمل الأرض َمثلَه　　ابرَّ بميثاقٍ وأوفى وأصبـرا . .

وما دام الحديث عن امريءُ القيس وهو يصف نفسه بهذه الصفات ، وهو يشق الطريق الصعب ، ويوغل في اعماق بلاد الروم ، فلا بد لنـا من استعادة بيت طرفة وهو يستجيب لصرخة قومه وهم يدعون الفتى الذي يلبّي النداء ، ويدفع الشر ، ويُعلن عن نفسه وقت الصريخ فيقول :

إذا القوم قالوا من فتى خِلتُ أنّني　　عُنيتُ فلم أكسلْ ولم أتَبلّدِ

والأعشى يقصد (هوذة الحنفي) وهو خيرُ فتى في الناس كُلّهم ، فالشمس لو ناداها ألقت إليه قناعـَها ، وكشفت وجهـَها ، وأسفرتْ وأطاعتْ وانقادت له لما عُرف به من نجدة ، واتصف به من شجاعة ، وشُهر به من حكمة . فهو الفتي الذي يحمل الأعباء في الوقت الذي لا يستطيع غيرّه النهوض بها .

وتتوالى هذه المعاني لتتسع دائرة الاستعمال فتضيفُ خصائص أخرى من كرم وشهامة وجمال وشجاعة وسماحة وشدة وصلابة ، والفتى لا يردُّ سائلاً ، ولا يضمر حقداً . . وتحمل اللفظة في بعض الاستعمالات معنى طراوة السنّ وصغره . كما جاء ذلك في ابيات عمرو بن كلثوم وهو يُشيد بفتيان قومه فيقول :

بفتيانٍ يَرونَ القتل مجـداً　　وشيبٍ في الحروب مُجـَرّبينـا

وقول الاعشى :

قد حَمـّلوهُ فتيّ السن ما حـَمَلت　　ساداتـُهم فأطاقَ الحملَ واضطلعا

وقول عبيد بن الأبرص :

كم من فتى مثلَ غصن البانِ في كرم　　محض الضريبة صَلْتَ الخَدّ وضاح

فالفتى في المجتمع العربي قبل الإسلام هو الانسان الذي تتجسّد فيه الصفات التي تتطلبها القبيلة على اتمّ وجه ، فهي شجاعة في القتال لتضمن الحمايـة للارض والدفاع عنها ، والكرم الذي يصون اسم القوم ويرفع ذكرهم ، والشهامة التي تزيد مركزها علوّاً وشموخاً . ومروءة تجمع الخصال الحميدة والقيم

النبيلة التي يمكن ان تجمعها القيمة العظيمة .

والفتوة في الاصل تعني الشباب ثم استعيرت لتدل على القوة ثم استعملت لتكون دليلاً من ادلّة السخاء والكرم ، وتجاوزت بعد ذلك هذه الاستعمالات لتصبح الكامل الجزل من الرجال .

ولعلّ اختلاف الاستعمال قد يأتي من اختلاف وجهات النظر التي وجدت في مدلول الفتى المعنى المطلوب ، والمضمون المراد لِمَا يُراد منه ان يكون في موضع مرموق ، وصفة كريمة وموقع متميز وفي كل هذه الأحوال يتحدد اللفظ وفق الصيغة التي يُطلقها القائل . شعراً أونثراً أو قولاً . فالبعض يراهـا في فصاحة اللسان والحكمة كما جاء في قول زهير بن ابي سُلمى : (لسانُ الفتى نصف ونصف فؤاده) والبعض الآخر يراها مطلقة يقصد بها الانسان كما جاء في قول لبيـد « فكلُّ فتىً يوماً به الدهرُ فاجع » وهنا يمكن القول ان الكلمة كانت تطلق على الاشخاص الّذين اجتمعت فيهم مجموعة من الصفات قد يكون الشباب وما يترتب عليه واحداً منها ، الى جانب صفة الكرم والنجدة والفصاحة والمروءة وإغاثة الملهوف ومعاونة المحتاج وحماية الضعيف وهنا تتقارب اللفظـة من صورة الفارس من حيث المثـل والقيم التي يلتزم بها كلٌّ منهما ويتصف بها كل واحد منهما .

واقترن لفظ (الفتى) في القرآن الكريم بالنبي (ابراهيم عليه السلام وهو يهوي بفأسه على الأصنام فكانت ضربته القوية ثورة رائدة في إسقاط الوثنيـة وتحطيم المعتقد الذي أودع في أحجار لا تضرّ ولا تنفع . بعد أن تمثلت في فكره وقوته وفتوته ريادة التوحيد والإيمان وارتفعت في يده راية الوفاء للمبادئ الإنسانية « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » الانبياء (٦٠) . والفتى هنا يجمع بين قُدرة الرؤية المستقبلية الثاقبة ، والتميّز بالقدرة الفريدة ، ولهذا كان اختياره لنشر رسالة التوحيد . وفي سورة الكهف كانت قصة الفتية الذين آمنوا بربهم

فزادهم ربهم هدى تمثل قصة التوفيق والتثبيت والقوة والصبر والجهر بكلمة الحق، والإيمان بالله . واقترنت اللفظة بسلامة المعتقد والهداية وهما صيغتان تحملان دلالة الرشاد ، وتؤكدان صفة الاعتقاد الصادق . (إنهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هُدى » الكهف (١٣) .

وفي هاتين الصياغتين . وفي إطار هذا الاختيار للمعاني الكبيرة التي وُصف بها نبيٌّ مرسل وأصحابٌ أوفياء لمبادئهم ، مخلصين لأهدافهم اختيروا ليكونوا قدوة لمن ترك عبادة الأصنام ، واتجهوا الى عبادة الله الواحد . تتضح الغاية العظيمة التي حملتها صيغة (الفتى) و (الفتية) وهي تتجاوز الفئـة العمرية الى طاقة متميزة . وصفة فريدة ، وحالة لها خصائصها ودورها التاريخي في الالتزام بالمبدأ ، والحفاظ على اداء رسالة انسانية كريمة .

إن محاولة ربط مفهوم (الفتوة) بالنبي ابراهيم عليه السلام تعطي هذا المدلول اهمية خاصة ، وتحدد له اتجاهاً تتوفر فيه كثير من الخصال الفريدة التي امتلكها الرُّسل وهم يحملون امانة الخير ، ويبشرون برسالة الإيمان ، ويقاومون جبّروت الشرك ، وطاغوت الطغيان ، وإذا كانت رسالة ابراهيم عليه السلام تمثلت في تحطيم الصنم ، واسقاط هيبته ، وزوال سلطان الوثنية المقيت ، والإيمان بالإنسان الذي كرّمه الله ،وفي تقديم نفسه قرباناً لعقيدته ، وتضحية لإيمانه ، وايثاراً لمبدئه ، فان هذه الدلالة تقدم نموذجـاً للفتوة المؤمنة ورائداً من روّاد الحقيقة التي عاشت في وجدان البشرية آماداً طويلة . وهو ربط استمرت قيمه في الخُلُق والسلوك والعقيدة . وعاشت أصوله في اعماق النفوس ، وتجددت صورته في كل عمل من اعمالها وهي تقاوم طاغية وتُسقط ظُلْماً وتتجاوز واقعاً حاول أن يفرض عليها سطوته .

إن هذا الربط الفكري والذهني والسلوكي والاستيعاب الحقيقي لمفهوم المبدأ الذي تبنى عليه قيم الفتـوة ، وتُرسّخ في إطار حدوده قواعدها يظل وجهـاً

من الوجوه الكريمة التي تتشوق اليها كلما وجدت أسباب القهر تحيط بها ، أو عوامل النهوض تدخل في بناء وجودها ووجدانها عنصراً متحركاً .

واذا كان هذا الاستعمال قد اعطى الصفة المشتركة لكل المجازات التي استخدمت اللفظة ، وحقّق العوامل المساعدة في تبيان الوجوه التي يمكن ان تقدمها في الاستعمال ، فإنّ الحقيقة الأصيلة التي تعيش في روح الفتى ، وتتألق في قسمات الفتيان ، وصلابة العقيدة التي تتمثل في اندفاعهم واقتدارهم تظل الصورة التي تستمد منها الأجيال روح الحياة ، وأسباب التقدم وعوامل النهوض هي الصورة الحية والواعية في الدلالة التي اجتمعت عليها استعمالات الألفاظ وتحققت في إطلاقها اشراقة المصطلح الذي توسمته في لفظة (الفتى) :

ومن الطبيعي ان يتسع مدلول الفتوة في العصر الإسلامي بعد أن تهذبت الطباع ، وأصبح مفهوم مكارم الاخلاق ، وحسن السيرة ، والدعوة الى المثل الاعلى هي الصورة التي دعا اليها الإسلام وحث على الالتزام بها والوفاء بقيمها ، لأنه دعوة الى التغيير ، ورسالة الى الانسانية ، وايمان بحق الحياة ، وهداية الى الحق ، ودفاع عن العقيدة واكتساب للسمعة الحسنة ، وهنا تأخذ المفردة نمطاً له دلالته الثابتة في الاندفاع وقدرته الفاعلة في الإيحاء بعد أن اصبحت المرحلة مهيئة لانتقال جديد ، ومُعَدّة لاستقبال احداث كبيرة ، وان ظلّت الخصائص العامة تحمل نفس الامتداد وتؤدي عين الصورة ولكنها شُحِنَت بدفقات دلالية جديدة أملتها مرحلة الرسالة الإسلامية ، وخلقتها متطلبات الأداء المسؤول ، لأن المؤمنين اصبحوا فتيان صدق في الطعان ، اقوياء لا يتسرب الى قلوبهم الضعف ، ولا يساور عزائمهم الخَوَر عند اللقاء ، يذودون عن الحمى ويدافعون عن الأرض ، ويقدمون اجلّ التضحيات ، إذا دعا الداعي ، لأن صورة الاستشهاد والجهاد اصبحت صورة مُضافة ، ووجهاً قائماً من وجوه الأيمان بعد أن تحوّلت حالة الدفاع الى مكرمة يُتسابق اليها ، وفضيلة يُسعى

لتحقيقها ، وغاية يحمد المرء على اكتسابها . وكبُرتْ الصورة في الاستعمال وتوسعت أبعادُها في الحديث بعد أن أصبح المجد البطولي والفروسي هو الساحة التي يتحرك عليها اللفظ ، والدائرة التي تحيط بالمعاني المتشابهة التي يمكن ان يوصف بها الفتى وهو يؤدي مهمة في كُلِّ موقع يوضع فيه بعد أن أصبحت المفردة غنية العطاء ، ثرّة الحيوية ، كبيرة في قدرتها وفعلها وديمومتها ، ووُظّفت توظيفاً ملازماً لكل الخصال الرفيعة . وهنا كانت الطبقة الأولى من الصحابة قدوةً صالحة اهتدت بهدي الرسول الكريم صلوات الله عليه ، واقتبسوا من نوره مُثُلاً علياً في رجاحة العقل ونفاذ البصيرة ، وكمال الرجولة ، وتوثقت في نفوسهم حرارة الإيمان . واستقرت في قلوبها اصول العقيدة ، ونمـا في عروقها حبُّ الخير ، وتشربت بالعفة طهراً ، وبالصـدق التزامـاً واداءً . وقد استطاعت هـذه الفئة الخيّرة مـن استيعاب هـذا الخُلُق فكانت مادة أصيـلة في ترسيـخ قواعـد البنية الجديدة ، واساساً من أسس المجتمـع النـاهض الذي حمل مسؤولية الأمانة وامتـلأ قلبـه بحب المبادىء السمحة ، فكانوا نماذج في الاستبسال وروّاد في طلب الشهادة ، وقادة متميزين في ادارة المعـارك ، وفرساناً في القتال وكانت تجربة الأيام الأولى في مجابهـة المشركين ، والوقوف بوجـه حركات الارتداد ، والدعوة الى اخراج الإنسان من ظلمات العبودية الى حرية الحياة ، تجربة رائدة ثبتَ فيها بلاؤهم ، وصَدَقَ إيمانهم ، وامتُحنتْ بها قدراتهم في المقاومة ، وصمودهم في المجابهة ، فكان لتربيتهم هـذه اثرٌ في اجتماع الناس حولهم ، والتفافهم تحت ظـل دعوتهم للمبادىء الانسانية التي بشّروا بهـا . فكانوا اقوياء على خصومهم ، رحماءَ بينهم ، وعلى الرغم من اتساع استعمال لفظة ((فتى)) في العصر الاسلامي لارتباطهـا بمكارم الأخـلاق ، والاتصـاف بالمروءة ، واكتمال أسباب الرجـولة ، فإن استعمال اللفظـة في الحـديث النبوي انحصر في حداثة السن كما جاء في قول الرسول الكريم صلوات الله عليه

« فإذا انا بشاب برّاق الثنايا » وقوله : « فيهم فتى شابٌ اكمل » ووصف جبريل عليه السلام بصورة الفتى في قوله عليه الصلاة والسلام « واحياناً يأتيني في مثل صورة فتى » وهنا تتسع الدلالة ليدخل فيها الإشراق والقوة والاكتمال . وفي حديثه عليه الصلاة والسلام « إئتوني باعلمكم فأتي بفتى شاب » يعني اكتمال العلم ، والتوثق من المقدرة على المحاججة ، وكثيراً ما اقترنت الفتوة بالشباب في احاديث الرسول فقال « ان فتى شاباً أتى » و « كنت فتىً شاباً عزباً » ويكاد هذا الاقتران يسري عـلى معظم الاحاديث التي ذكر فيها لفظ فتى ، وهي مرحلة من مراحل تطور اللفظة ، وصورة من صور استعمالها بعد أن أصبح الفتى الشاب هو الصورة المشرقة في البناء ، وهو الوجه المتقدم في سلّم التكوين الاجتماعي باعتباره عنصراً فاعلاً في الأحداث ، ووجهاً متميزاً من وجوه الدعوة ، وهي تتحرك باتجاه التغير ، واخذ المواقع اللازمة ، وتمثلت هذه الخصائص في الصحابة الاوائل والخلفاء الراشدين ، والقادة الميامين الذين حملوا راية التحرير وهم يتخلقون بخلق الرسول ويلتزمون بمنهجه القويم وتعاليم الرسالة الانسانية الكريمة .

وتكتسب اللفظة في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام . لا فتى إلا علي ، لا سيف إلا ذو الفقار صورة الترابط وبين الفتوة والشجاعـة ، بين الشباب والسيف بين القدرة والاقتدار وهو مما اكتملت فيه اللفظة دلالة واتسمت به وحدة وتوثقت به استعمالا في مرحلة اصبحت فيه قوة الايمان متصلة بقوة الدفاع واستخدام العقل مرتبطاً باستخدام السلام .

وتأخذ اللفظة حجمها الجديد في ظل المتغيّرات التي تعرض لها المجتمع ، في الحدود التي اصبحت تتعامل بها المفردة ، وهي تتوزع في احاديث الشعراء ، وتُتناقل على افواه الرواة والمؤرخين والفقهاء ، فالفتيان هم المقاتلون الذين يُندبون للحرب فيستجيبون استجابة الرجال الاشداء لانهم يرون لله عليهم حقا في مقارعة الطغاة ، وخوض المعارك الكبرى الحاسمة ، ولا يبتغون من الله إلا ثواب الآخرة ، والخاتمة الصالحة ، والفتيان كأسد الغاب إذا شرعوا عنـد

الطعان ، وهم أهلُ نجدة ومروءة (١)

عليهِ كأسْدِ الغابِ فتيانُ نجدةٍ إذا شَرعوا نحو الطعان العواليا

والمسلمون في يوم خيبر لهم صولة محمود (٢) .

ونحن وردنا خيبراً وفروضَه بكلِ فتى عاري الاشاجع مِذْوَد

وهم لا يتوانون عن دعوة اذا دُعوا ولا يخيبون ظناً اذا اعتمدوا (٣)

وفتيانٍ إذ نُدبوا لحربٍ تَمشّوا مشيةَ الأبل الهيـام

وهم فتيان صدق من كرام الأعارب كما يصفهم قيس بن حازم البجلي (٤)

ودانٍ لنا الخابور مع كُل اهله بفتيان صدق من كرام الاعارب

وهم الذين يُدركون الأعداء لما عرف عنهم من جرأة ، ووُهبوا من مصاولة ، وقدروا عليه من مطاردة (٥)

وادرك همّامــاً بابيضَ صـارمٍ فتى من بني عمرٍ طوال مشايع

والفتية المؤمنون هم الذين يبيعون نفوسهم للعقيدة ، ويبذلون تضحياتهم سخيّةً من أجل المبدأ ، دفاعاً عن الحق ، وصوناً للكرامة ، ووفاءً للعقيدة (٦)

رأت فتيةَ باعــوا الإله نفوسهم بجنات عــدْنٍ عنده ونعيم

والفتى في عرف الشعراء بطل ما يزال الدهر سُنّةَ رمحه ، لا يخذُله رمح ، ولا يُكسَر له سنان ، ولا تُطفأ في قلبه جذوة ، ولا يعرف التراجع (٧)

فتىً لا يزال الدهر سُنة رمحِهِ إذا قيل هل مِنْ فارسٌ أن يُداعسا

والذين قاتلوا جُندَ الهرمزان كانوا من الفتيان النجباء الذين لم يغمدوا سيفاً ، ولم

(١) الطبري . تاريخ الطبري ٥٤٢/٥ البيت لجواس بن قعطل .
(٢) كعب بن مالك . الديوان .
(٣) ابو حاتم السجستاني . المعمرون والوصايا / ٦٩ .
(٤) الواقدي : فتوح الشام ٧٢/٢ .
(٥) ابو تمام : الحماسة ١٩٥/٢ (التبريزي) .
(٦) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ١٠٤٦/٣ .
(٧) شعر الخوارج / ١٨٧ .

ينكصوا رمحـــاً ، ولم يترددوا عن خوض معركة يستعيدون فيها مجـــداً ، ويحققون نصراً (٨) .

ولا هَمّ الا البزّ أو كُلّ سابحٍ   عليه فتىً شاكي السلاح نجيبُ

وعلى الرغم من حالات الاستعطاف التي كانت تتردد في الفاظ الوداع وعبارات الحنـــان التي يُذرفها الآباء والأمهات وهم يقفون على ابواب المـــدن العربية لينطلق الأبناء البررة للدفاع عن الأرض والحمى ، فإنّ هذه المواقف الحادّة والنظرات العاطفية لم تُثنِ الفتيان الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وآمنوا بما وعدهم به من الثواب ، ونذروا أنفسهم للعقيدة لأن دعوة الجهاد والتحرير أقوى تأثيراً ، واشدّ صلةً في نفوسهم ، وارسخ من كل دعوة . .

وفتى العرب هو المقاتل الذي تبقى رايته مرفوعة ، وصوتُه يشقُّ اصداء الفلوات علوّاً واقتداراً وهمة وعزيمة . وهو ما اطلق على عبدالعزيز بن زُرارة وهو يجاهد في حرب الروم بالقسطنطينية ، ويصل خبر استشهاده الى اخيـــه معاوية وهو يقول : والله هلك فتى العرب . وهنا تنفرج اسارير وجهه وتنطلق عبارته رائقة ليقول (٩) .

فكُلُّ فتىً شارب كأسه   فأمّا صغيراً وإما كبيراً

وكثيراً مانجد صفة الفتى تلازم المرثى كما سنقف عليها في نماذج أخرى .. والمتميز في الحرب هو الفتى ، فعندما قيل للمهلّب بن ابي صُفرة ماأعجب مارأيت في حرب الازارقة قال : فتـــى كان يخرج الينا منهم في كلّ غداة فيقف ويقول (١٠) :

وسائلةٍ بالغيب عَنّيَ لودَرت   مُقارعتي الأبطال طال نحيبُها

اذا ما التقينا كنتُ أولَ فارسٍ   يجود بنفسٍ أثقلتها ذنوبُها

(٨) المخبل السعدي . شعره . (مجلة المورد) .
(٩) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ٤٥٩/٣ .
(١٠) ابن عبد ربه . العقد الفريد ١٠٣/١ .

ويُنسب الفتى الى قبيلته أكراماً لها ، وتعريفاً بها . فعبدالله بن الحر يستجيب لدعوة الفتى الأسدي عند دعوته له . وهنا يكون لفظ (الفتى) واسعَ الدلالة ، كبير الدائرة لأنه يقع في إطار القبيلة التي ينتسب اليها كل الفتيان (١١) .

دعاني الفتى الأسدي عمرو بن جندبٍ فقلت لــه لبيك لمــا دعانيا

والفتى لايبالي الدهر ماقلَّ ماله ويداه تتوزعان بين جود يكرم المعدمين ، وبطش على الاعداء تسطو وتجرح (١٢) .

فتى لايُبالي الدهر ماقلَّ مالهِ اذا جُعلت ايدي المكارم تَسنح

والفتى هنا ظل صورة للنموذج المطلوب ، وحالة من حالات الاقتداء لمن، اراد ان يتمثل بالفضائل التي بقيت في أعراف العصر هي الفضائل المحمودة وهنا كانت تقترب الفتوة من مفهوم الفروسية ، وتتفق في كثير من خصائصها ، وتتوحد في ظل المعاني التي يوصف بها الفارس والفتى . ولكن الحدَّ الفاصل الذي يبقى قائماً بينهما هو أن لفظة الفتى تظل تحمل معنى الجرأة والحيوية والقدرة ، ويتصف من تُطلق عليه بالخصائص التي تدل على الحركة السريعة والتضحية الفريدة ، والاقتحام الحاسم في حين بقيت لفظة الفارس تحمل طابع الاقتران بصفات أقلَّ اتساعاً وحدودٍ أضيقَ استخداماً ومجالات محصورة في هذا التحديد تستطيع أن تقف عند الإطار الذي خُصّت به الاستعمالات وحُدّدت به طبيعة الصفات التي تضفي عليه وتحكم خضوعه لها .

لقد ظلت لفظة الفتى مقترنة باحترام المجتمع ، وقريبة من نفوس الناس لأنها توحي بالوفاء للقيم التي عاشت في نفوس ابنائه ، وتُدلل على الإلتزام الاخلاقي الذي التزم به من يحمل هذا اللقب أو يوصف به او يقع في دائرته ، لأن الصورة التي كانت تقف على النقيض منه هي الصورة غير المحمودة التي تُسلب منها كل الفضائل وتنتزع عنها كل الخصال والمآثر . ويمكن

(١١) شعراء امويون ١ /١١٨ .
(١٢) شعراء امويون ١/٢٩٥ .

تفسير ظاهرة خلو غرض الهجاء من استعمال لفظة الفتى بأن الشعراء كانوا يبتعدون عن استخدامها لأنها ظلت تحمل الخُلق الكريم والمأثرة العزيزة، ولا يمكن ان تضاف لأيّة صفة لا تدخل في حدود المعاني الانسانية النبيلة.

ومن المظاهر الواضحة في تطور لفظة الفتى هي الصورة التي تطالعنا في الرثاء حتى او شك القارئ ان يجد المرثي في صور الشعر على امتداد العصور (فتىً) وهي حالة تكشف عن الجانب النفسي الذي يُعطي المرثي صورة الفتى الشجاع الجريء، وتضعه في قلوب المفجوعين حيّاً يستمدّ حيويته من الخصال التي تُضفي عليه عندما يكون في إطار الفتوة. وتمنحه قدرة الشباب ونضارة العمر الزاهي، ووجاهة اللوعة التي يمكن أن تثيرها عند سماع القصيدة. ان هذه الخصائص وغيرها من العوامل هي التي أغنت اللفظة بمدلولات متحركة، وجلّلتها بدفقات فتية من الصور لتكون أكثر اشراقاً، وأزهى روعة، وأكمل بهاءً. فالمرثي في ابيات اعشى همدان فتىً مات ميتة كريمة، وكل فتى يوماً لاحدى النوائب (١٣).

فإن تقتُلوا فالقرمُ أكرمُ ميتةٍ ... وكلُّ فتى يوماً لأحدى النوائب

وموت الفتى عند عروة ليس عاراً اذا لاقاه كريماً (١٤).

لعمرك ما بالموت عارٌ على الفتى ... اذا ما الفتى لاقى الحمامَ كريما

وتجتمع في صورة الفتى كل خصال المقاتلين الشجعان، فهو يكرّ ويصبر عند احتدام المعارك، ويدعو صبره وجلده عند الهياج الى التعجب (١٥).

فللّه عينا من رأى مثله فتىً ... اكرّ وأحمى في الهياج وأصبرا

ويضاف لفظ الفتى الى الندى والطعان والرياح وكل الخصال الحميدة التي تعطيه وجهاً متميزاً، وتحدّد له خصلةً محمودة، وتفرده بالتعريف بمأثرة كريمة فعندما رثى جرير (١٦):

(١٣) أعشى همدان. الديوان.
(١٤) شعر الخوارج / ٥٢.
(١٥) الحماسة البصرية ٢٠٢/١.
(١٦) ديوان جرير.

أفتى الندى وفتى الطعان قتلتم وفتى الرياح اذا تهب بليلا

وكذلك يقول قطري بن الفجاءة (١٧) :

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرتْ طعان فتى في الحرب غير ذميم

وتظل لفظة الفتى في صور الرثاء واضحة المعالم تنطلق من عظم التضحية وجرأة الاقدام واقتحام الخطوب ، وتجد النساء في مراثيهن للفرسان راحةً عند تكرار اللفظ ، واستجابة نفسية هادئة عند ايقاع النغم المصحوب بكل ما يُرضي النفس ، ويخفف عنها اعباء الإحساس بالغُربة والشعور بالفقدان ، والتوجّس من المصير المجهول الذي ستتُرك به بعد أن فقدت العزيز ، وانقطعت عنها صلتها بمن كان يملأ عليها أسباب الحياة وفي نماذج ليلى الأخيلية في رثاء توبة تجسيد لهذه الحالة ، وربما كانت تُناجي من خلال مدلول الفتى هواجس العشق التي تتجاوب في وجدانها من حُبّ فتاها التي ظلت تعبر عنه قصائد الرثاء الفريدة ، فكانت في تذكّرها لتوبة صورة الوفاء ، وحالة من حالات الاحساس الانساني الذي ظل يرى المرثي فتى بكُلّ ما تضمه اللفظة من ايحاءات ، وتثيره من لواعج ، وتحتفظ به من دلالات ، وهو مضمون جديد تعبّر عنه الشاعرة من خـلال احساسها وتتأثر به من خلال عواطفها التي بقيت حادّة ومتأزّمة ومفجوعة . وكأنها وجدت في الصورة الحيّة ، واللوحة النابضة علامة من علامات التعبير المهموس في نغمات اللفظة التي حرصت على تكرارها واشباعها واستغراقها ، فهو فتى وجدت في صفاته ما لم تجده عند غيره من الرجال ، ولم يكن في تصورها انه الحدث الشاب ، وانما كانت تجد فيه الرجولة الكاملة والصورة الممتلئة ، والنبع الدافق بكل معاني الحياة ، ولعلّ بيتها الذي أجابت فيه تساؤل مروان ابن الحكم حين سألها عن توبة فقالت : والله ما قلت الا حقاً ، ولقد قصّرت ، وما رأيتُ رجلاً قط كان أربط على الموت جأشاً ، ولا أقلّ انحياشاً حين تحتدم ساحة الحرب ، ويحمي الوطيس بالطعن والضرب كان والله كما قلت (١٨) :

(١٧) المبرد . الكامل / ١٠٤٦ . (١٨) ليلى الاخيلية . الديوان / ٦٢ .

فتىً لم يزل يزدادُ خيراً لدُنْ نشا ... الى أن عَلاهُ الشيب فوقَ المسايح
تراه إذا ما الموت حلَّ بورده ... ضَروبــاً على أقرانه بالصفائـح
شجاعٌ لدى الهيجاء ثَبْتٌ مشايح ... إذا انحاز عن اقرانه كلُّ سابح
فعاشَ حميداً لا ذميماً فِعالُهُ ... وَصُولاً لقُرباه يُرى غَيرَ كالحِ

فجمعتْ في أوصافه كلَّ المكارم ، وحققت في خصاله كلَّ المحامد . فكان نموذجاً في البطولة والشجاعة والاقدام والمجابهة والصمود وسبّاقاً الى الفِعال الحميدة . وهي الصفات التي بقيت متألقة في معجم المديح العربي ، ورفيعةً في تقاليد المجتمع وتوبة هنا علاه الشيب ، وخبرته التجربة وعركته الأحداث ، فاستوى رجلاً ولكنه في عرفها (فتىً) وفي حديثها (فتى الفتيان) لأن حالةَ الارتياح التي تمتزج في حروف اللفظة ، وصوت الشوق الذي يتصاعد في اكتمال احساسها بالمفردة الموحية حملتهـــا على أن تكرر لفظـــة (فتى) في شعرها ثمانياً وعشرين مرة (١٩) كانت اربعاً وعشرين منها بصيغة المفرد الذي حرصت عليه ، واستطابت ترديده ، وارتضت ذكراه، واستعملت صيغة الجمع اربع مرات (٢٠) وهي محاولة لتكثير اللفظة التي حملت صورة اكبر في ذهنها ، ولكنها لم تكن باحساس الحالة المفردة التي كانت تشعر بارتياح اكثر عند ذكرها ، لما تحرص عليه ، وكأن مناجاتها له في بُكائياتها كانت تفرض عليه ان تراه مفرداً في اللفظ والحدث ، وتتحدّث اليه بَعيدة عن صيغة الجمع أو صورة المشاركة ، فكان انصرافُها اليه اشدّ تأثيراً ،ووقوفُها معه اكثرَ التصاقاً . وهي حالة جديدة من حالات المناجاة الحيّة ،التي انفردت بها الشاعرة وهي تتحرق شوقاً ، وتتوقد عاطفة واحساساً ، واصبحت اللفظة التي تصاحب اسم توبة هي الدور المُردّد في اغنية الشاعرة ،والصوت المحبّب في ثنايا

(١٩) تنظر الصفحات ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١١٥ من الديوان .
(٢٠) تنظر الصفحات ٧٢ ، ٨١ من الديوان .

الابيات ، والحياة المستمرة في مقاومة العوادي ، وتسجيل الانتصار ، وتحقيق الحياة الكريمة والأبية .

ويأخذ منحى الرثاء عند بعض الشواعر هـذه الصورة ، فنجد المرأة وهي تقف في موقف رثاء أخيها صورة (الفتى) هي الصورة المطلوبة وهي الحالة التي يمكن ان يكون عليها العزيز الذي اصبحت في شخصيته كلّ الآمال ، وتحقّقت في وجـــوده كل الخصائص . فزينب بنت الطثرية ترى فيه (الفتى) الذي قُدّ قدّ السيف لا متضائل ، ولا رَهِل لباتُه وأبا جُله وهنا أخذت الصورة لون التناسق الجسمي والقوام المعتدل ، والشاب الرشيق ، وهو (الفتى) الذي لا يرى قدّ القميص بخصره ، ولكنما توهي القميص كواهله . فإذا جَدّ الجدّ يُرضي جَدّه ، واذا القومُ أمّوا بيته فهو عامِدٌ لأحسن ما ظنوا به فهو فاعله ، وهنا تصُبح الريادة والاندفاع نحو تحقيق العمل الأحسن ، والفعل الأجود ، واذا نزل الاضياف وجدوا عنده ما لا يجدونه عند غيره ، ويروي المشرفيّ بكفّه ولا يغدر بابن العم (٢١) .

ومثلما وجدت النساء في صورة (الفتى) غايتها ، وفي مروءته حقيقتها التي فقدتها بفقده ، وسندها الذي اهتزت لسقوطه ، وارتعدت لذهابه ، فإن قصائد الرثاء الخالدة والمشهورة كانت تحمل هـذه الصورة ، لأن عاطفة الصدق التي تجسّدت في هذه القصائد بقيت نابضة بالوفاء الأصيل ، وخالدة بالحسّ الانساني الحي ، فأبو المغوار شقيق كعب بن سعد ترك في قلب اخيه لوعة ، واستثار في اعماقه اسى ولوعة ، فكان فتى الحرب ، ان حارب كان سهامُها ، وفي السلم مفضال اليدين وهوب . ولا يبالي إذا مسّه الشحوب . وهوب في مواسم القحط ، جواد في اوقات الشدة . اريحي يهتزّ للندى ، وتتكرر لفظة الفتى في كثير من قصائد الشعراء الذين وقفوا هـذه المواقف مثل الابيرد اليربوعي

(٢١) الحماسة البصرية ١/٢٢٣ .

وصَعْبَ اليربوعي والشمردل وغيرهم ممن عزّ عليهم فراق الأخوة .

وعبيدالله بن الحرّ الجعفي شاعر فارس ، وكان له حديث مع الفتيان بعد أن منحهم من صُور البطولة والشجاعة ماوضعهم في عداد الأبطال ، فهو لم يتحدث عنهم الا وكانت وجوهُهم مصابيح في داج توالت كواكبه ، أو فتيان كرام يحبهم ، أو فتيان جُردٍ اذا خرجوا من غارةً رجعوا اليها بأسيافهم ، وهو متى يدعو هؤلاء الفتيان ركبوا واسرعوا (٢٢) .

كأنّ عبيدالله لم يمس ليلَهُ مُوطّنةً تحت الشروح جنائبُه
ولم يَدعُ فتياناً كأنّ وجوهَهم مصابيحَ من داجٍ توارت كواكبُه

ويقول في موضع آخر (٢٣) .

وسيري بفتيانٍ كرامٍ أحبُّهم مُغذّاً وضوءُ الصُبح لم يتبلّج

ويذكر في موضع آخر (٢٤) .

ومنزلةٍ ياابنَ الزبير كريهة شددتُ لها من آخر الليل أسرُجا
بفتيانِ صدق فوق جُردٍ كأنّها قداحٌ براها الماسحيّ وسجسجا

وعبيدالله بن الحي كما يقول الطبري من اشعر الفتيان (٢٥) وهي اشارة تؤكد ان اللفظة اصبحت لها دلالة ، وانضوى تحتها عددُ من الشعراء الذين عرفوا بخصالها وحافظوا على تقاليدها والتزموا بقيمها ومبادئها .

واتصف عبيدالله بجرأته وصراحته في أشدّ المواقف حراجةً ، وتتضح الجرأة والصراحة من خلال الأخبار التي تقدمها مراجع دراسته، ومثل ماكان جريئاً صريحاً فقد كان سخياً متلافاً.وهو يقرن حديث اصحابه من(الفتيان) بحديث البطولة نفسه.لأنه قوي بهم ،فاقترنوا بكلّ صورة تمثلت فيها خصائص الفتوة . فتألقت وجوههم البيضاء لوحة مشرقة من لوحات أفعالهم الصادقة ،

(٢٢) (٢٣) (٢٤) ينظر شعر عبيدالله بن الحرفي (شعراء امويون) الجزء الاول.
(٢٥) الطبري . تاريخ الملوك ١٢٩/٦ .

وتطاولت روائع اعمالهم نقيّة فوق كل لحن من الحان شعره الخالد ، ولم يقتصر في أحاديثه عن الفتيان على الجانب الحربي وحده ، وانما كان يشير الى صفاتهم الأخرى التي حببتهم الى نفسه ، وجعلتهم بضعةً منها ، فهم يحمون الذمار ، اخوة إذا نطقوا لم يسمعوا اللغو منهم . واذا غنموا لم يفرحوا بالجزيل . وظلت هذه الألواح الشعرية تتناثر في قصائده ، وبقيت اعمالهم وتضحياتهم مجالاً فسيحاً من مجالات فنّه الشعري بعد أن وجدّ في جماعات الفتيان الاداة السليمة التي يمكن أن تحقق له بعض ما كان يصبو اليه وسط تيار أصبح فيه مفهوم الفتى مقترناً بكل الخصال الحميدة والمآثر المحمودة ومن هنا كانت نظرته الى الفتيان نظرة حقيقية وكانت اساليبه في معاملتهم اساليب قيادية حكيمة ، يمنحهم مايكسب دون تمييز وفي تصرفه يمتلك زمام القيادة الادارية ، ويوازن بين الواجبات والمسؤولية . وهي بدايات أولية أخرى أصبح لها شكلها وتحددت لها بعض مبادئها وما تلتزم به او تحافظ على ادائه وطبقة الفتيان بعد أن تولى امرها فتى مسؤول ، تميزت شخصيته ، ووضحت اعماله وواجباته ، وعُرفت شجاعته ، وهذه البدايات تضع العلامات الاولى لنضوج فكرة التنظيم الذي أصبح حالة لها اصولها وخصائصها .

ان دراسة تحليلية لمفردات الفتى التي استشهد بها عبيدالله بن الحر وهو يأخذ هذا الموقع ، ويتبنّى هذا السلوك تعني انها اقتصرت على الشجاعة والجرأة والاقدام وحماية الذمار وهو ما اراد التعبير عنه ، ولازم حياته ، فكانت احاديثه مرتسمة في صورة الشجاع والمقاتل والمحارب ، وهنا تتخصص اللفظة بطابع الفروسية الحاد ولكنها تظل ملازمة للمعنى السلوكي والاخلاقي الذي يتمم الصورة ويُكمّل ابعاد الفتوة الحربية وقد حاول الشاعر ان يواجه الأحداث بمجموعة من الفتيان الذين اختارهم وحاول ان يقدم من خلال تنظيمه البسيط وحدة متماسكة سلوكاً وقيادةً . ترتكز على وجود قائد ، وتتحدد في اطار المبادىء القويمة التي زخر

بها العصر وعرفتها تجربة الأمة في مرحلة المجابهة والتوحد ، لايقاف حالة التداعي والتمزق . وفي متابعة هذه الجماعة وغيرها تبلورت بعض المبادىء وارتسمت بعض الخطوط لتأخذ طريق التنظيم الذي يحفظ لهذه القيم اصولها ، ويرسخ في نفوس الابناء قواعدها .

واذا كانت دلالة مفهوم الفتى قد توزعت في اعراف الشعراء توزعاً معنوياً له ابعاده من حيث التأثير في طبيعة الاستخدام والتوجه في احقية التعبير أو التأثر في تحديد الملامح المطلوبة فإن الفظة عند ابي تمام تتحرك في اتجاهات لا تظل محصورة في الاستعمال التقليدي ولا محدّدة في المعاني التي ألِفَ الشعراء استخدامها ولكنها تتجاوز المعاني لتأخذ صورة التوجه الذي عرف به هـذا الشعر ، وتدرج الى صـورة الفتى العربي الذي تزاحمت في ساحته مطـامع الخصوم ، وتنامت في عصره اسباب التآمر ، وتحركت قوى الردة والشعوبية والغلو لتجدَ في دعاوى الدين ستاراً ، والانتساب لآل البيت مدخلاً من مداخل الاستحواذ على قلوب بعض الذين استهواهم هـذا التوجه . فكانت لهـا دلالة متخصصة وحضور متميز حرص الشاعر ان يرى فيه القيم الاصيلة وهي تتجسد والمثل العليا وهي ترتسم والوفاء لما حملته اللفظة وهو يؤدي وفق الصورة المطلوبة . وهي معان تمثلها الشاعر تمثلاً حقيقياً واستوعبها استيعاباً مفعماً بالحركة فكانت حركة استعمالها ملازمة لما وضعت له ، بعيدة عن كل تسرب غير موجه فالفتى عنده واحد لا يتغير ، اجتمعت فيه الخصال الاصيلة التي ينفرد بها عن الآخرين ، وتوافرت فيه الشيم التي تطبعه بما يؤهله للوصف بمثل هذه الصفة ، وانه ظل الوجه الايجابي الذي يعطي الحالة بعدها وانه الصورة التي تتجمع فيها الخصائص المطلوبة التي يُحسها ابو تمام وهـو يستجمع المواقف الكريمة ويستذكر الرجال الاماجد في حالات المديح والرثاء . والحرب والفخر وحتى في حالات الهجاء عندما يفقد الانسان بعض صفاته الكريمة ويصبح بعيداً عن

المعاني التي تؤهله ليكون « فتى » .

وهنا كان الفتى هو الصورة الكبيرة التي تضمّ البطل والفارس لأن استعماله لهما كان اقلّ كثيراً من الاستعمال الشامل للفظ الفتى واذا كانت لفظة (البطل) تأتي في ديوان الشاعر اثنتي عشرة مرة ولفظة (الفارس) تأتي سبع عشرة مرة فان لفظة الفتى ومشتقاتها ترد خمساً وثمانين مرة . وهي الحالة التي كانت تلتقي في حدودها كل الخصال الكريمة والصفات الانسانية والأعمال الكبيرة التي كان الشاعر يرى فيها نماذج البطولة واقدار المروءة وعناصر الاصالة . .

إن دقة التوظيف الفني عند ابي تمام للفظة وحرصه السليم في الاداء والتواصل ووفاءه لاستكمال الصورة التي يجهد نفسه في استكمال اوازمها وتهيئة الوانها وما تضيفه عليها من بريق أو اشعاع أو تثيره فيها من حركة أو نبض ، لانه كان يجد في هذا الاستخدام الفني والمعنوي وجهاً من وجوه الانسانية والرجولة أو المروءة في اضيق المجالات وفي اقربها الى التناول . لانها تبقى المفردة الحيّة والمتحركة في قاموسه الشعري ولأنه يجد فيها الصوت المرتفع في اللحظة الحاسمة واللون البارز في الصورة المتحركة ، والقدرة الفائقة في التعبير ، ولأن فتاه الذي يتردد في قصائده هو النموذج الذي ورث خصائص الأمة الخيرة ، والشخص الذي يمثل صفاتها الأصيلة ، وعبر عن المطامح المشروعة التي عاشت في ذاتها ولازمت هُويتها ورافقت مسيرتها ، فالفتى لم تعد عنده لفظة تعطي لكل انسان او ليست صفة تمنح لكل من وُهب قدرة على التحلي ببعض الاوصاف التي عُرف بها الفتيان وانما الفتى في شعره من عظمت مواقفه ، وحمدت مآثره ، وخلدت أعماله وخلصت نيته وكرمت أصوله وطابت فروعه . وهي خصائص ليست هينة ، وصفات ليست ميسورة ، وان الذين يستحقونها من خلال الزاوية التي يريدها ابو تمام قلة نادرة ، ونخبة مختارة ، تفرد في ايرادها ، وخصّ بالحديث عنها لانه اللوحة التي تكبر فيها قيم المروءة وتتسع أطر الوفاء والتضحية والأيثار

وكل المعاني التي تتفق فيها وحدة التناول، وفي صور الممدوحين الذين عرض لهم ابو تمام تتجلى المعاني التي اراد التعبير عنها والشخصيات التي وجد فيها روح الفتوة فخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني واحد من الذين منحهم صفة الفتى فقال(٢٦):

فتى عنده خير الثواب وشره ... ومنه الإباء الملح والكرمُ العــذبُ

فخالد يمتلك خير الثواب وشره ويعرف كيف يثيب وكيف يعاقب ويحسن التصرف في كل وجه من وجوه الثواب ولابائه خصوصية متميزة .. وتبقى هذه الخصال هي الصورة التي يراها الشاعر في ممدوحه فتستحق هــذا الوصف

وابو محمد بن الهيثم له صورة أخرى تجمع المكارم المحمودة وتختار الوجوه المتميزة يحشد له مقدمة ويهيء له اوصافاً تؤهله لما يريد ان يذكره به فيقول(٢٧):

وأروع لا يرعى المقالد لامرئٍ ... فكُـلّ امرئٍ يلقى به بالمقالد
له كبرياء المشتري وسعــوده ... وسورة بهرام وظرف عطارد
فتىً لم يقم فرداً بيــوم كريهةٍ ... ولا نائل إلا كفى كل قاعد

ويبقى الشاعر يتابع الممدوح في ذكر ما يتمتع به من خصال ويقدمه من اعمال تؤكد اعجابه وتحقــق جدارته وتحصى فضائله لتتكامل اللوحة التي يرى فيها الممدوح قد اكتمل فتىً ونموذجاً ممدوحاً .

واذا تجلّت خصال المدح في فتى ابي تمام بما قدمه من مبررات لتقليده هذا الوشاح البطولي فان رثاءه لقحطبة . يحمل الدلالة الحية التي نبضت بها المفردة وهي تنساب في رثاء بطل استأثر بوجه آخر من وجوهها فهو كما يقول الشاعر (٢٨) .

نعم الفتى غير نكس في الجلاد ولا ... لدن الفؤاد لدى وقع القنا اللّدن

انها صورة البطولة التي تجمع كل الفضائل وتقف عند كل المحامد وتنتهي عندها

(٢٦) الديوان ١/١١٩ .
(٢٧) الديوان ٢/٧٢ .
(٢٨) الديوان ٤/١٤٠ .

روائع الخصال والمآثر لانه آثر ان يموت بين اطراف الرماح وهي الميتة التي يتمناها الاباة ويسعى اليها الرجال ويفخر بعزها الخالدون ، وقد حرص الشاعر على ان تظل الصفات الكريمة هي الطرف الأول في معادلة الفتى لتكتمل في طرفها الثاني عندما تصبح الشجاعة والتضحية هي الوجة الآخر لما ظل اميناً عليه (الفتى) وحريصاً عليه (الشاعر) .

والمتنبي الذي ظل صوتاً من اصوات البطولة وحكاية من حكايات التاريخ العربي وهو يسجل الوجوه التي تفتح عنها العصر ونماذج البطولة التي استحقت التكريم ، وصور الرجال الذين اخذوا مواقعهم في قصائد الشعراء ، يعطي اللفظة دلالة أخرى ولتجسّد التراكم البطولي لما أصبح عليه الانسان ، والتكامل الانساني الذي انعقدت على أعماله مآثر المحامد ولا بد ان تكون شخصية سيف الدولة هي النموذج الشجاع والسخي وهي الوجه المحمود لما يمكن ان تكون عليه دلالـــة الفتى وانه فتى العرب العرباء كما يقول المتنبي (٢٩) :

إذا العربُ العرباء رازت نفوسَها فأنت فتاها والمليك الحلاحِل

وتكبر صورته ليصبـــح فتى الفتيان في لوحة اخرى وهي الصفة الوحيدة التي وردت في ديوانه لسيف الدولة حيث يقول (٣٠) :

أرى العراق طويلَ الليل قد نُعيت فكيف ليلُ فتى الفتيان في حلَبِ

وتبقى لفظة الفتى ملازمة لسيف الدولة في كرمه الذي لا نهاية له ، وشجاعته وشدة بأسه وادخاله الروع في قلوب اعدائه وكرم نفسه وقد اقترنت هذه الاوصاف بشخصه ولازمت مواضع المدح في شعر الشاعر الذي حرص على ان تظل الصورة ممتلئة بكل المعاني الكريمة وجامعة لكل الخصال المحمودة ، وشاملة لما يمكن ان يكون عليه الرجال في حالات التفرد والتمايز .

(٢٩) الديوان ٣/٢٤٠ .
(٣٠) الديوان ١/٢١٧ .

ولا تغرب عن بالنا صورة الشاعر وهو يفخر بنفسه ويُعلنها صريحة على رؤساء الاشهاد حيث يقول من مقصورته المشهورة (٣١)

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنّي الفتى

وتقترب صورة الوفاء العربيّ من مفهوم الفتى الذي حرص على ابرازها الشاعر لتتحول الى صرخة واعية واحساس بالغربة واضح وحَيرة بالاستلاب قلقة حيث يقول (٣٢) .

ولكن الفتى العربي فيها غريبُ الوجه واليد واللسان

ويظل معجم اللفظة في ديوان المتنبي واسعاً ليضم المعاني الاخلاقية والنفسية والقيم الخيرة التي ظل حريصاً على الوفاء بها والالتزام بمضامينها . ولعلّ الظاهرة التي تطالعنا في هذا المعجم هو ان الشاعر كان يستخدم لفظة (الفتى) معرَّفة بأل إذا كان يريد الاشارة فيها الى الانسان أو المرء وإذا اراد المعنى المجازي للكلمة وهو يدخل الى الصور التي يراها أو المعاني التي يحرص على الوقوف عندها فانه يذكرها مجرد فكرة فيقول (فتى) ويتبعها بما يخصصها من كلمة مفردة أو جملة . وقد استخدم الشاعر لفظ (فتى) اثنتين وثلاثين مرة و (الفتى) سبعاً وعشرين مرة و (فتى الفتيان) اربع مرات و (الفتاة) ثلاث مرات ، و (فتاها) مرتين و (الفتوة) مرة واحدة ، وهي حالات تعطي اللفظة اهميتها ، وتكشف عن اهمية استعمالها ووجاهة الوقوف عندها لما تثيره في النفوس من معانٍ وتخلقه من نوازع ، وتبعثه من استلهام .

إن قاموسية لفظة (الفتى) تنطلق من المعنى الملازم للصورة في حديث كثير من الشعراء لان استخدام اللفظة في الشعر كان يأخذ المنحى الذي يتلاءم مع مستواها في التعبير ، وانسجامها مع المعنى المطلوب ، ودلالتها في اداء الصورة

(٣١) الديوان ١/١٦٥ .

(٣٢) الديوان ٤/٣٨٤ .

المطاوبة ومن هنا كانت اللفظة تأخذ دلالات محدّدة في قاموس بعض الشعراء ، وتنفرد في بعض الأحيــان بصورة واحــدة أو حالة محــدّدة لأن الإطار الذي استخدم الشاعر فيه اللفظة كان اطاراً محدداً ، وحالة متميزة كما وجدناها عند (ليلى الاخيلية) أو (ابي تمام)أو (المتنبــي) وهي ذاتها تكون عند الشعراء الذين استخدموا اللفظة احساساً بالشعور القومي ، وتلمساً لمعاني الشجاعة ، وتأكيداً لانسانية المروءة في الاستخدام الواضح واذا كانت اوليات هذه المحاولات قد كشفت عن الخط المتميز لما تقلبت عليه اللفظة ، أو الدائرة التي استخدمت في حدودها فان صوراً أخرى من هذا الاستخدام بقيت تتحدّد في دلالات الشعراء ، وتستوحي في حضور المفردة ، وتستخدم في اداء المعنى المطلوب . . على ان الجانب التنظيمي لجماعات الفتيان بدأت تأخذ صورة اوسع كلما دخل المجتمع العربي مرحلة من مراحل النمو وتعقدت اسباب الحياة ، واشتبكت عناصر الاختلاط . ففي حديث ابي الفرج عن حنين الحيري يشير الى انه كان يحمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطربين الى الحيرة (٣٣) . وهو خبر يؤكد تميز بيوت الفتيان وانهم طبقة لها مركزها المرموق ودورها في المجتمع وانهم كانوا يذكرون مع اصحاب القيان والموسرين وان من تقاليدهم اهتمامهم بالرياحين وتعاطيهم الاعتناء بها وهي ظاهرة حضارية أخرى تضاف الى خصال الفتيان . وفي خبر آخر يذ كر ابو الفرج في سياق حديثه عن حنين أنه خرج الى حمص يلتمس الكسب ويرتاد من يستفيد منه فسأل عن الفتيان بها واين يجتمعون ، فقيل له : عليك بالحمّامات فإنهم يجتمعون بها اذا اصبحوا . فجاء الى احــدها فدخله ، فاذا جماعــة منهم فآنس وانبسط وأخبرهم بأنه غريب فخرجوا وخرج معهم وذ هبوا به الى منزل

(٣٣) ابو الفرج . الاغاني ٢/٣٠٤ ــ ٣٠٥ (دار الثقافة) .

احدهم فأكل وشرب (٣٤) وهنا تظهر خصيصة اخرى من خصائص هؤلاء الفتيان الذين اصبحت معالمهم معروفة ومنتدياتهم مشهورة ، ينزل في رحابهم الغرباء ، ويُنشد في مجالسهم الغناء ، وهي تطور جديد لما كانوا عليه في القرن الأول الهجري ، وهي تؤكد الأصول التي اكتملت فيها حركة الفتيان في القرن الثاني والثالث الهجريين .

ويبدو أن تطور الحياة في المدن أدّى الى ظهور تنظيمات جديدة بين العامة هي غير الاصناف وكان لها دور يذكر في حياة المدن ، وهي تنظيمات العيارين والشطار التي اتخذت خطاً متميزاً . وقد ظهرت فعاليتهم لأول مرة اثناء حصار بغداد من قبل الجيش الخراساني الذي ارسله المأمون (١٩٦ – ١٩٧) حيث هبوا بتنظيم شبه عسكري ، وبأعداد كبيرة للدفاع عن المدينة ، ثم نراهم ثانية (في حوالي خمسين الفاً) يقاتلون ببسالة دفاعاً عن بغداد حين حاصرها الجند التركي القادم من سامراء اثناء الفتنة بين المستعين والمعتز (سنة ٢٥٠) (٣٥) . وذكر الدكتور عبدالعزيز الدوري (٣٦) امثلة كثيرة عن دور هذه الجماعات في حفظ النظام والسيطرة عند انتشار الفوضى وعند تعرّض الحدود الى الغزو الاجنبي ، فكانوا يخرجون الى القتال بتعبئة شبه عسكرية ولهم قادة ونقباء وعرفاء وفي كل محلة (مقدم) أو (متقدم) وتؤكد الاخبار فتوتهم ، ولكن تنظيمهم في الاساس تنظيم حرفي ، ولهم مراسيم في الانتماء تشبه مراسيم الأصناف ، وتحكم سلوكهم مبادئ اخلاقية كالمروءة والرفق بالضعفاء والفقراء وحماية النساء ، يعتزون بالشجاعة والكرم وقد استطاعت ان تكون لنفسها مفاهيم اخلاقية وقيما مشتركة (٣٧) .

---

(٣٤) ابو الفرج . الاغاني ٣٠٦/٢ .
(٣٥) الدكتور عبدالعزيز الدوري . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي /٧٦ .
(٣٦) الهامش رقم (٧) في الصفحة / ٧٦ – ٧٧ .
(٣٧) الدكتور عبدالعزيز الدوري . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي /٧٨ .

وتدخل لفظة الفتوة في معجم المصطلحات الصوفية لتكون الصفح عن عثرات الاخوان ، وان لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك ، وهنا كانت الكلمة تأخــذ مجرى قد يبتعد من حيث الدلالة عن المفهوم الأول الذي ازمتــه في المصطلح إلا انها ظلّت تحمل القيم النبيلة وانصاف الآخرين واحترامهم .

ويبدو ان الحركة تأثرت بالمفاهيم الصوفية في فترة مبكرة من تأريخها . فقد عقد صاحب الرسالة القشيرية باباً سماه باب الفتوة عرض فيه لبعض المدلولات التي حملتها اللفظة وعقد الشيخ محي الدين بن العربي فصلاً طويلاً للفتوة في كتابه (الفتوحـــات المكية) وذكر فيه مقام الفتوة وعُــدّ ابراهيم عليـــه السلام الذي هشم رأس اكبر صنم ، وقدم نفسه للنار وفاءً لعقيدته ، وإيثاراً للحق من اوائل الفتيان الذين حملوا راية الاصلاح واسهموا في الدعوة الى الخير ، وبناء المجتمع الصالح ، فكانت مقاماً من مقاماتهم . ثم نقلت الى المعنى الديني لتدخل في الزهد ، وضبط النفس والايثار وحملها على الحق مهما كانت المكاره ، وبقيت اللفظة تدخل في مصطلحات المتصوفة والمريدين واهل الملام واسقاط الرؤية ، وترك النسبة .

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

وفي زمن الناصر لدين الله (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ) توحـــدت منظمات الفتوة وتعززت وحدتها وتماسكت عناصرها واصبحت حركة شعبية موحدة تتخطى نطـــاق رقعته التي يحكمها ، ومدّ رئاسته للفتوة الى الامراء المجاورين بادخالهم في التنظيم وجعلهم مسؤولين عن جماعات الفتيان في بلادهم وقد اتخذوا من الصيد اسلوباً ، واستمر هذا النظام الذي تولاه الخليفة المستنصر حفيد الناصر لدين الله فرعاه ، وحافظ على سنته ، وأنعمَ على من يشاء منهم بلباس الفتوة (السراويل) (٣٨) .

---

(٣٨) تنظر مجلة لغة العرب . نيسان ١٩٣٠ للدكتور مصطفى جواد بحث عـن الفتوة والفتيان قديما .

ان الاتجاه للاهتمـــام بنظام الفتوة في هذه المرحلة التي بدأ الخطر يهـــدد الأمة العربية من حدودها الشرقية والغربية كانت الحافز المهم في هذا التوجه والدافع الحقيقي بعد أن وجد الخلفاء ان التفكك والتمزق قد اخذ بزمام الأمور ،وان عوامل الاخفاق قد استليت من الأبناء قدرات المقاومة والتحدي والمجابهة . وهنا كانت الاسباب موجبة لمثل هذه الفتوة التي يمكن أن تقف بوجه هذا التحدّي ، واعداد فئة قوية من الشباب تعتمد في صد هذا الهجوم . وايقاف الزحف المتوالي على الامة . وان الفتوة كانت تمثل الاحتياطي الذي تسند اليه مهمة الدفاع الداخلي وحفظ الأمن ، وحماية المواطنين وفي حالة المواجهة عندما تكون جيوش الغزاة قد تجاوزت القوات النظامية كانت مجاميع الفتوة تتولى مهمة الدفاع عن المدن وتشتبك مع الغزاة . صوناً لحماية التراب وحفاظاً على ارواح الناس واموالهم .

وكانت الفتوة قد عـمّت القسم الشرقي من البلاد الاسلامية فان حركة موازية للفتوة ومتداخلة معها ظهرت في الشام والجزيرة الفراتية منذ اواسط القرن الرابع الهجري هي حركة(الاحداث) واستمرت في فعالياتها الى القرن السادس الهجري وقد نشطت حركة الأحداث في دمشق وحلب بصورة خاصة ؛ وان عـمّت المـدن الأخرى وكوّن الأحـداث تنظيماً شـعبياً اتخذ موقفاً عـدائياً من السلطة الخارجية التي حاولت أن تفرض سيطرتها على البلاد . وكان للاحداث تنظيمهم ؛ ولهم رؤساء ونقباء ومقدّمون(٣٩) ، وكانت حركات الغزو الاجنبية تضرب الحركات الشعبية عندما تتمكن من السيطرة أو تتحكم في المناطق التابعة لها .

ان التطور الواضح لمعنى الفتوة لا يقف عند هذه الحدود وانما تستمر هذه الحركات بعد موجة المغول وتعرض المشرق العربي لهجمة التتر فتداخل مع

(٣٩) الدكتور عبدالعزيز الدوري . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي /٨٠ .

بعض الطوائف الصوفية وتجمع بين العمل الحرفي والمهني وتصبح وحدة الكلمة وتوحيد الجهد والتغلب على صعوبات الحياة هي الحالة الجديدة التي تلتقي عند مفهوم الفروسية الذي رافق مفهوم الفتوة ونجد ان بعض هذه التنظيمات تتحول الى تنظيمات شبه عسكرية تؤدي مهمة الحفاظ على الأمن ومحاربة الغزاة والوقوف بوجه المستبدين وبث روح التعاون وترسيخ مضامين القيم الأخلاقية والسلوكية

فابن بطوطة يقف وقفات طويلة عند الأخيّة (الفتيان) بعد أن اصبحت نظاماً له قواعده، وانظمته ففي حديثه عن (انطاليه) (٤٠) يذكر أن واحد الأخية (أخي) على لفظ الاخ إذا اضافه المتكلم الى نفسه، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية، وهذا يعني انه تنظيم امتدت مفاصله الى أقاصي البلاد، أما تقاليدهم فلا يوجد في الدنيا مثلهم كما يقول ابن بطوطة اشد احتفالاً بالغرباء من الناس، واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة . والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على انفسهم وتلك هي الفتوة ايضاً . ويأخذ النظام هنا صورة التوجه الصوفي المترمت، ويتحول الفتيان الى مجموعات تتخذ من الزوايا اماكن يجتمعون بها، يجعلون فيها الفرش والسرج وما يحتاجون اليـه من الآلات فيجتمعون على الطعـام ويأكلون ويرقصون ثم ينصرفون الى صنائعهم بالغدو، ويصف ابن بطوطة ليلة استضيف بها فيقول ذهبت الى زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفي ارجلهم الاخفاف وكل واحد منهم متحزم وعلى وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف، باعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض اصبعين فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها

(٤٠) ابن بطوطة . الرحلة / ١٩٠ .

بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزرد خاني وسواه ، حسنة المنظر وفي وسط مجاسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر به المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم اخذوا في الغناء والرقص فراقه حالهم ، وطال عجبه من سماحهم وكرم انفسهم وانصرف عنهم آخر الليل وتركهم (٤١)

وعند حديثه عن بلدة (بردور) قال اجتمعت الأخية وارادوا نزوله عندهم فأبى عليهم الخطيب فصنعوا لـه ضيافة في بستان لأحـدهم وذهبوا به اليها فكان من العجائب اظهار السرور والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لسانه اولا ترجمان فيما بينهم . وينزل زاوية احد الفتيان في مدينـة (قـل حصار) (٤٢) وعند نزوله (مدينة لاذق) مرّ بسوقها فنزل اليه رجال من حوانيتهم واخذوا بأعنة خيلهم ، ونازعهم في ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع حتى سلّ بعضهم السكاكين على بعض ، وهو لا يعلم ما يقولون ، فخاف منهم وظن انهم من الذين يقطعون الطرق الى أن بعث الله رجلاً حاجاً يعرف اللسان العربي فسأله عن مرادهم فقال : انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا اولاً هم اصحاب الفتى (اخي سنان) ، والآخرون اصحاب الفتى (أخي طومان) ، وكل طائفة ترغب في ان يكون نزولنا عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم (٤٣) .

ومن عادة الفتيان انهم يخرجون في عساكر السلطان في الاعياد وقد حملوا الاسلحة(٤٤) وعندما سافر الى مدينة (ميلاس) نزل بزاوية احد الفتيان (الأخية) ففعل اضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ومن حميد الافعال وجميل الاعمال (٤٥) . وفي مدينـة (قونيـة) نزل بزاوية قاضيهـا المعروف بابن

(٤١) ابن بطوطة . الرحلة /١٩١ .
(٤٢) ابن بطوطة / الرحلة ١٩٢/١ .
(٤٣) ابن بطوطة . الرحلة ١٩٣/١ .
(٤٤) ابن بطوطة . الرحلة ١٩٤/١ .
(٤٥) ابن بطوطة . الرحلة ١٩٤/١ .

قلم شاه وهو من الفتيان ، وزاويته من اعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم في الفتوة سند يتصل الى امير المؤمنين على بن ابي طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة . ويدخل مدينة (اقصرا) وينزل بزاوية الشريف حسين النائب وهو من الفتيان وله طائفة كبيرة فيكرمه اكراماً متناهياً ويفعل افعال من تقدمه (٤٦) . وفي مدينة (نكدة) ينزل بزاوية الفتى (أخي) جاروق وهو اميرها فيكرمه على عادة الفتيان ويقيم عنده ثلاثاً ثم ينزل بزاوية الفتى(الاخى) امير علي وهو اميركبيرمن كبار (الأخية) وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها . ومن عادات هذه البلاد أن (الأخي) هوالحاكم إذا لم يكن في البلد سلطان فهو يُركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره ، ويتحدث بمثل هذا الحديث عند وصوله الى (سيواس) (٤٧) و (تيرة) (٤٨) و (يزمير) و (يزنيك) و (مطرين) ومن عاداتهم ان النار لا تزال موقدة في زواياهم أيام الشتاء ابداً ، يجعلون في كُلّ ركن من اركان الزاوية موقداً للنار ، ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذي الزاوية ويسمونها البخاري (٤٩) .

فصورة الفتيان في عصر ابن بطوطة (النصف الاول من القرن الثامن الهجري) اصبحت نظاما له قواعده ، وتقليداً له أصوله ، بعد أن اصبح الفتيان ينتمون الى صناعة واحدة يجمعهم واحد منهم يُطلق عليه (الأخي) ويتمتع هذا الأخي ببعض الخصائص التي يتميز بها عن الآخرين ، ويلتزم باداء بعض الواجبات التي تفرضها اصول الضيافة وكرم السماحة ووفاء العطاء والاستقبال ، واصبحت للنظام زوايا تسمى باسم الأخي كما وجدنا ، وان هذه الزوايا تدار من قبل الفتيان الذين يجتمعون فيها ويجعلون فيها الفرش والسرج ويأخذون مواقعهم مصطفين وقد هيأوا من الآلات ما يُعينهم على قضاء الليلة ، فيأكلون ويغنون ويرقصون ثم ينصرفون الـى

(٤٦) ابن بطوطة . الرحلة ١٩٦/١ . (٤٧) ابن بطوطة . الرحلة ١٩٧/١ .
(٤٨) ن. م. ٢٠٢/١ . (٤٩) ن. م. / ٢٠٩ .

صنائعهم . أما لباسهم فهو الأقبية وفي أرجلهم الأخفاف ويتحزمون بحزام وعلى وسطه سكين وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف . ولباسهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة . . .

فصورة الفتيان هنا اصبحت واضحة المعالم ومتميزة وهي امتداد للفتوة التي تبلورت اهدافها في زمن الناصر وبقيت في زمن المستنصر ويبدو ان غلبة الجانب الديني أو المهني قد غلب عليه ليؤثر في نظامها الداخلي وتقاليدها الخاصة ، ولكنها ظلت تحمل الصورة الانسانية التي جمعت خصال الكرم والسماحة والضيافة والاستجابة لنداء الواجب ، وانها توسعت لتدخل تنظيماً في كل قرية ومدينة وبلد وهي تنظيم يوحي بدقة تخطيطه والتزام الناس به وميلهم للدخول فيه ، وان (الاخي) اصبح ينوب عن الحاكم في المدن التي لم يلتحق بها حاكم . وكانت له تقاليده في المواسم والاعياد والمناسبات وانّهم يحتفظون بسلاحهم الذي يظهرون به عند الاحتياج . .

إن محاولة متابعة دلالة الفتوة وبهذه الصورة التي أحسبها جامعة لما يمكن أن تدخل في اطاره تمثل التوجه الموضوعي الذي يمكن ان تدرس فيه هذه الظاهرة أو غيرها من الظواهر وفي دائرة البحث عن اللفظة والوقوف عند المدلول الدقيق الذي استخدمت فيه ، لأن المعاني الجزئية التي تدخل في اطارها اللفظة توحي بمجموع الاستعمالات التي دارت عليها ، وتبقى الدلالة الذاتية التي ينطلق فيها كل استعمال أو الحالة التي ترافق الأداء الفني أو الوظيفي هي الصورة التي تتميز بها بين استعمال وآخر أو تناول وتناول . وهذا ما يجتهد في تحديده المجتهدون وتقف عنده الدراسة التفصيلية عندما تحاول التعبير عن الحالة الخاصة أو وجهة النظر المحدودة أو التوجه الذي تدخل فيه . وتبقى مفاتيح هذا الموضوع بداية لطريق جديد وتوجه واضح لما يمكن ان تكون عليه الدراسة .